الفصل الثالث

الحلم تحقيق رغبة

لو أن رجلا ضرب فى منعطف ضيق ثم إذا هو يستوى فوق قمة عالية تتشعب منها الطرق وينتشر الأفق ثريا فى كل اتجاه ، لكان من الأوفق للرجل أن يتمهل برهة ليتدبر فى نفسه ما هى مقبلة عليه . وحالنا وحال هذا الرجل سواء، بعد أن استتب لنا أول تفسير فسر به حلم ما . فنحن نقف ونور الكشف المباغت يغمرنا . فالحلم ليس بالأصوات الناشزة تنبعث من معزف قرعته قوة خارجة لا يد الموسيقى ، والحلم ليس خلوا من المعنى ولا فاسده ، ولا هو يدعنا نفترض أن فريقا من أفكارنا المختزنة ينام بينما يصحو فريق . إنه ظاهرة نفسية صادقة كأصدق ما تكون الظاهرة النفسية : إنه تحقيق رغبة ، والطريق موصول بينه وبين ما نعقل من نشاطنا النفسى فى يقظتنا ، وبناؤه من صنع نشاط ذهنى على كثير من التعقيد . بيد أننا لا نكاد نأخذ فى الابتهاج لهذا الكشف حتى يهجم علينا سيل من الأسئلة : فإذا كان الحلم يمثل رغبة محققة — كما يحدثنا به التفسير — فما مأتى الصورة العجيبة التى يتخذها هذا التحقيق ؟ أى تغيير ينال أفكار الحلم قبل أن تحول إلى الحلم الظاهر الذى نذكره فى يقظتنا ؟ كيف يقع هذا التغيير؟ من أين تأتى المادة التى تحول إلى حلم ؟ وما أصل الخصائص الكثيرة التى نستطيع ملاحظتها فى أفكار الحلم — كقبولها التناقض مثلا ؟ (أنظر مثال القدر المستعارة ص١٤٧) . هل يستطيع الحلم أن يعلمنا جديدا عن عملياتنا النفسية الباطنة؟ هل يستطيع محتواه أن يصحح آراء كنا نعتقد صدقها فى أثناء النهار ؟ إنى أرى أن ندع جانبا جميع هذه الأسئلة فى الوقت الحاضر ، وأن نتقدم ببحثنا فى طريق واحدة : لقد رأينا أن الحلم يحقق رغبة ، فواجبنا الآن هو أن نبحث هل هذه خاصة مشتركة بين الأحلام جميعا أو هو اتفاق عرض فى محتوى ذلك الحلم الجزئى الذى بدأنا به تحليلنا (حلم حقنة إرما) . فلقد نقبل التسليم بأن لكل حلم معناه وقيمته النفسية ، ولكن من الواجب مع ذلك أن نترك مكانا لإمكان تفاوت هذا المعنى بتفاوت الأحلام . فحلمنا الأول قد حقق رغبة ، ولكن قد يجىء ثان فإذا هو يحقق مخافة ، أو ثالث فلا يخرج

محتواه عن أن يكون فكرة ما ، أو رابع يستحضر إحدى الذكريات وحسب . أهناك إذن أحلام رغبة أخرى عدا هذا الحلم ، أم لعله لا وجود لأحلام سوى أحلام الرغبة ؟

إن من السهل أن نتبين أن تحقيق الرغبة كثيرا ما يرد فى الأحلام سافرا غير خاف ، حتى أن المرء ليعجب لأن لغة الأحلام لم تفهم منذ زمن طويل . إليك مثالا على ذلك أستطيع إحداثه كلما شئت ، كأنما كان ذلك بالتجريب : إذا أكلت فى الليل أنشوجة أو زيتونا أو غيرها من الأطعمة الشديدة الملوحة ، أحسست فى الليل العطش وأيقظنى هذا الإحساس . ولكن هذه اليقظة تجىء دائما فى أعقاب حلم لا يختلف محتواه ، ومحتواه أنى أشرب ، أشرب جرعات كبيرة من الماء ، والماء حلو المذاق كما يحلو السلسبيل والحلق جاف . عندئذ أستيقظ وأرانى حقيقة مسوقا إلى تلمس الماء . فالمناسبة الداعية إلى هذا الحلم غير المعقد هى العطش الذى أحسه حين أستيقظ ، ومن هذا الإحساس تنبعث الرغبة فى الارتواء ، وهذه الرغبة يصورها الحلم متحققة . وهو إذ يفعل يؤدى وظيفة أحذرها على الفور : فأنا أنام نوما عميقا ولم آلف أن توقظنى حاجة من حاجات الجسد ، فلو قد أفلحت فى أن أسكن عطشى بحلم أرانى فيه شاربا ، لأغنانى ذلك عن الاستيقاظ إرضاء لهذا العطش ؛ فهذا الحلم حلم أخذ بالتى هى أسهل : لقد حل الحلم محل العمل — كما يقع أيضاً فى غير ذلك من مواقف الحياة . ومن سوء الحظ أن الحاجة إلى الماء إرواء لعطشى لا يمكن إشباعها بحلم مثل ظمأى إلى الثأر من صديقى أوتو ومن الدكتور م . ولكن حسن القصد فى الحالين واحد . وحدث منذ وقت غير بعيد أن اتخذ هذا الحلم نفسه صورة مختلفة بعض الاختلاف . فقد أدركنى العطش قبيل النوم فأفرغت فى جوفى كوبا من الماء أضعه على منضدة صغيرة بجوار سريرى ، ولكن العطش عاودنى فى خلال الليل بعد ذلك بساعات واستتبع ما يستتبع من إزعاج ، فكان علىّ إن أردت لغلتى ارتواء أن أنهض باحثا عن الكوب الموضوع على مائدة زوجى . وعلى ذلك أتانى حلم مناسب للمقام ، فرأيت زوجى تقدم إلى وعاء به شراب ، وكان الوعاء جرة خزف إترورية[1] من قبيل ما يحفظ فيه رماد الموتى بعد إحراقهم ، كنت قد جلبتها معى من رحلة إلى إيطاليا ثم أهديتها إذ ذاك إلى البعض . ولكن الماء كان مالح المذاق (وجلى أن ذلك من أثر الرماد) ، حتى

---

(١) [نسبة إلى إتروريا ، وهى المنطقة من إيطاليا المسماة اليوم توسكانيا ، وبها استقر قوم يغلب أنهم من أصل آرى وأنهم وفدوا إليها من آسيا الصغرى ، وكانت لهم حضارة رفيعة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد .]

أنني استيقظت . ولا يفوتنا أن نلحظ كيف سهّل هذا الحلم الأمور على أوفق وجه . فغرضه الأوحد هو أن يحقق رغبة ، ومن ثم جاز له أن يكون أنانيا مطلق الأنانية . والحق أن حب السهولة لا يستقيم ومراعاة الآخرين . والراجح أن إدخال الجرة الخزفية فى الحلم كان يحقق أيضا رغبة : فأنا آسف على أن هذا الإناء قد خرج من حوزتى — كما يخرج من متناولى الإناء الموضوع على مائدة زوجى . والجرة برمادها تتسق أيضا وإحساس المذاق المالح الذى كان آخذا إذ ذاك فى الاشتداد والذى أعلم أنه موقظى لا محالة[1] .

وكانت أحلام السهولة هذه تقع لى كثيرا فى شبابى ؛ فقد كان من عادتى دائماً أن أعمل حتى ساعة متأخرة من الليل وكان الاستيقاظ المبكر أمرا عسيرا على دائما ، فكنت أحلم حينئذ أننى قد غادرت الفراش ، واقف بجوار الحوض أغتسل . وغنى عن البيان أنه لم يكن فى مستطاعى أن أتمادى فى التغافل عن الواقع إلى غير حد ، ولكننى كنت أظفر فى هذه الأثناء ببرهة من النوم . وحدثنى زميل شاب ، كان يشاركنى هذا الغرام بالنوم على ما يبدو ، عن حلم كسل من هذا القبيل ، اتخذ عنده صورة فريدة فى طرافتها . ذلك أن هذا الزميل كان قد طلب إلى السيدة التى يقيم بدارها قريبا من المستشفى أن توقظه فى ساعة محددة كل صباح ، وكان ذلك أمرا مشددا ، ولكن السيدة لم تلبث أن تبينت أن تنفيذه لم يكن بالأمر الهين . وفى ذات صباح لاح له النوم فريدا فى حلاوته ، وجاءت السيدة تصيح وهى بالباب : « يا سيد پي استيقظ ، لقد جاء وقت الذهاب إلى المستشفى » ، فكان جوابه حلما رأى فيه أنه نائم فى إحدى حجرات المستشفى وقد علقت فوق سريره لائحة خط عليها : « پي هـ . ، طالب طب ، ٢٢ سنة » فكان أن حدث نفسه — وهو ما زال بحلمه — قائلا : « لا حاجة بى إلى أن أذهب إلى المستشفى ما دمت هناك » — ثم تقلب فى فراشه ومضى فى نومه . وهكذا اعترف اعترافا صريحا بدافعه إلى الحلم .

---

(١) عرف ڤيجانت أيضاً وقوع أحلام العطش هذه ، فهو يقول : (١٨٩٣ ، ٤١) " وهذا الإحساس بالعطش هو الذى يدرك أدق إدراك ، وهو يبعث دائماً على تصور الارتواء . وأما الطريقة التى يصور بها الارتواء فى الحلم ، فتختلف وتستمد صورتها الخاصة من إحدى الذكريات القريبة . وظاهرة أخرى مطردة الوقوع فى هذا المجال : هى أن فكرة إرواء العطش لا يلبث أن يتلوها الشعور بالخيبة ؛ لقلة غناء هذا الارتواء الوهمى . " إلا أن ڤيجانت يغفل المغزى الكل الذى تتضمنه استجابة الحلم إلى المنبه . — هذا ، وإذا كان بعض الناس قد يدركهم العطش فى أثناء الليل فيستيقظون دون أن يحلموا ، فذلك ليس اعتراضاً على تجربتى ، وإنما هو دليل على أن هؤلاء الناس أردأ نوماً من غيرهم . — أنظر سفر إشعياء ، الإصحاح ٢٩ ، ٨ : " ويكون كما يحلم الجائع أنه يأكل ثم يستيقظ وإذا نفسه فارغة . وكما يحلم العطشان أنه يشرب ثم يستيقظ وإذا هو رازح ونفسه مشتهية . "

وها هو ذا حلم آخر فيه كذلك أحدث المنبه فعله فى خلال النوم نفسه . فقد أمر الأطباء إحدى مريضاتى — وكانت قد أجريت لها عملية فى الفك لم تصب النجاح المأمول — بأن تضع على خدها المصاب جهازا مبردا ، ليلا ونهارا . ولكنها كانت لا تكاد تنام حتى تسارع إلى إلقائه . وسئلتُ ذات يوم أن أعنفها بعض التعنيف على مسلكها هذا ؛ فقد رمت جهازها مرة أخرى . ولكنها أجابتنى قائلة : « الحق أنى لم أكن أملك حيلة فيما وقع هذه المرة ، وإنما المسئول حلم حلمته فى الليل . فقد رأيتنى فى شرفة بدار الأوبرا وقد أخذ المشهد بلبى ، ولكن الهر كارل ماير كان راقدا فى المستشفى وهو يشكو ألما فى فكه من الشكوى ، فقلت لنفسى : لا حاجة بى إذن إلى هذا الجهاز ما دمت أنا لا أعانى ألما . وكان أنى رميت الجهاز . » إن حلم هذه الشاكية المسكينة يبدو تصويرا أمينا لعبارة شائعة ترد على اللسان عفوا حين يرى الإنسان نفسه فى موقف لا يحسد عليه : « الحق أنى كنت أستطيع أن أتصور ما هو ألطف من ذلك » ؛ فالحلم إنما يصور هذا الألطف ، فقد كان الهر كارل ماير الذى حولت إليه الحالمة أوجاعها آخر شاب يمكن أن يتجه إليه تفكيرها بين من تعرف .

وبمثل هذه السهولة نستطيع أن نتبين تحقيق الرغبة فى أحلام أخرى جمعتها من أناس أصحاء . فقد قال لى يوما صديق كان يعرف نظرياتى فى الحلم وتحدث بها إلى زوجه : « سألتنى زوجى أن أخبرك أنها حلمت بالأمس أن الحيض قد جاءها . لعلك تعلم ما معنى ذلك . » ويقينا أنى أعلمه : فأن تحلم هذه الزوج الشابة بأن الحيض قد جاءها ، معناه أن الحيض قد انقطع . وأستطيع أن أتصور أنها كانت تود لو استمتعت بحريتها بعضا آخر من الوقت قبل أن تبدأ تكاليف الأمومة : إن الحلم كان طريقة ماهرة فى الإنباء بحملها الأول . وكتب إلى صديق آخر يقول : إن زوجه قد حلمت منذ قريب بأنها تلحظ بقعا من اللبن على صدارها . وهذه أيضا بشرى تنبئ بالحمل ولكنه ليس الحمل الأول : فالأم الشابة تأمل أن تدر لرضيعها الثانى أكثر مما أدرت لرضيعها الأول .

وظلت سيدة شابة أسابيع طوالا بمعزل عن المجتمع ؛ لأنها كانت تتعهد ابنها المريض مرضا معديا . فلما كتب له الشفاء ، حلمت بمجلس التقت فيه بألفونس دوديه وبورجيه ومارسيل بريفو وغيرهم من الكتاب وكان لطف الجميع تجاهها غاية ، وسروا عنها أجمل تسرية . وكانت للمؤلفين المجتمعين ملامح كالتى لهم فى صورهم ، إلا مارسيل بريفو

الذى لم تكن قد رأت صورته ؛ فقد كان يشبه . . . موظف وزارة الصحة الذى بخر غرفة المريض يوم أمس وكان أول زائر يزورها منذ وقت طويل . وهكذا يبدو أن فى الإمكان أن نترجم هذا الحلم ترجمة وافية : لقد آن أوان الانصراف إلى شيء أكثر تسلية من هذا التمريض الأبدى .

لعل هذه المقتطفات كافية أن ترينا أننا نجد فى أحيان كثيرة جدا وبين ملابسات على أشد ما يكون اختلافا — أحلاما لا تترك مجالا لفهمها بغير كونها تحقق رغبة ، أحلاما يسفر محتواها عن فحواها فى غير خفاء . إنها فى الأغلب أحلام قصيرة غير معقدة تباين التآليف الحلمية المشوشة المسهبة التى جذبت بنوع خاص انتباه المؤلفين مباينة حسنة الوقع . بيد أن جهدنا لن يضيع مع ذلك هباء إذا نحن وقفنا عند هذه الأحلام غير المعقدة بعض الوقت . ولنا أن نتوقع أبسط صور الحلم عند الأطفال ؛ فلا شك فى أن نتائج نشاطهم النفسى أقل تعقيدا من نظيراتها عند الراشدين . وأعتقد أن من المقدر على علم نفس الطفل أن يسدى إلى علم نفس الراشدين خدمات نافعة كالتى أسدتها دراسة بنية الحيوانات السفلى وتطورها إلى دراسة بنية الحيوانات الأعلى مراتب . ولكن الجهود التى بذلت عن قصد من أجل الانتفاع بعلم نفس الأطفال لهذا الغرض لا تزال قليلة حتى اليوم .

إن أحلام الأطفال لا تخرج فى أحيان كثيرة[١] عن أن تكون تحقيق رغبات ، وهى تخلو عندئذ[٢] من القيمة ، بالقياس إلى أحلام الراشدين ؛ لأنها لا تثير ألغازا تنتظر الحل . ولكنها بالطبع تظل ذات قيمة لا تقدر من أجل البرهنة على أن الأحلام تعنى فى جوهرها الدفين تحقيق رغبة . ولقد أمكننى أن أجمع بضعة أمثلة عليها ، من مادة زودنى بها أطفالى نفسى .

إذ أشكر لرحلة قمنا بها فى صيف عام ١٨٩٦ من آوسى إلى قرية هالشتات الجميلة[٣] أن كانت سببا فى حلمين أتت أولهما ابنتى ، وكانت تبلغ من العمر إذ ذاك ثمانية أعوام

---

(١) [" فى أحيان كثيرة " أضيفت فى طبعة ١٩١١ . ولفرويد ملاحظة على هذا التقييد يقول فيها (الكتابات المجمعة ، الجزء الثالث ، ١٩٢٥ ، ص ١٢) : " لقد بينت الخبرة أن الأحلام المشوهة التى تحتاج إلى تفسير تقع أيضاً للأطفال الذين يبلغون الرابعة أو الخامسة . وذلك ما يتفق تمام الاتفاق وآراءنا النظرية عن الشروط التى تحتم تشويه الأحلام . "]

(٢) [قبل عام ١٩١١ كنا نقرأ : " من أجل ذلك " بدلا من " عندئذ " .]

(٣) [فى منطقة سالتسكامرجوت بأعالى النمسا .]

ونصف العام، وأتى ثانيهما ولد تجاوز الخامسة بثلاثة شهور . ومن اللازم أن أقول على سبيل التمهيد : إننا كنا نقضى ذلك الصيف على تل قريب من آوسى ، كنا نستمتع منه إذا صحا الجو بمنظر بديع من مناظر جبل داخشتاين . وكان من الميسور إذا استعنا بمنظار مقرب أن نتبين منه فى وضوح كوخ[1] سيمونى . ولقد حاول الأطفال رؤيته من خلال المنظار تكررا ،ولست أعلم مدى نجاحهم فى ذلك . وكنت قد ذكرت للأطفال قبل الرحلة أن هالشتات تقع على سفح الداخشتاين ، وكانوا هم ينتظرون اليوم الموعود فى فرح شديد . ومن هالشتات أخذنا نصعد فى [وادى] اشرنتال الذى خلب الأطفال بمشاهده المتقلبة ، إلا أن واحدا منهم — وهو الولد الذى فى الخامسة — أخذ يتذمر ؛ فكلما لاح للنظر جبل جديد جعل يسأل : أهذا هو الداخشتاين ؟ فأجيبه : كلا ، إنه أحد التلال التى على سفحه فقط . وبعد أن كرر سؤاله هذا بضع مرات ، التزم الصمت التزاما تاما وأبى مصاحبتنا فى المرتقى الذى يقود إلى مسقط المياه . وظننت أنه كان تعبا ، ولكنه أقبل فى الصباح وعلامات البشر بادية عليه ، وقال : « لقد حلمت فى الليلة الماضية أننا كنا فى كوخ سيمونى . » وإنى لأفهمه الآن : فهو قد توقع حين تحدثت عن الداخشتاين أن يصعد الجبل فى أثناء رحلتنا إلى هالشتات وأن يرى عن كثب كوخ سيمونى الذى طالما كان موضع حديثنا ونحن ننظر إليه بالمنظار . فلما رأى أن عليه أن يقنع بتلال على السفح وبمسقط مياه ، خاب ظنه وصار صموتا . ولكن الحلم عوضه عما فاته . ولقد حاولت أن أعرف بعض تفاصيل الحلم ، ولكننى لم أظفر منه بالشىء الكثير ؛ فكل ما استطاع قوله هو : « إن المرء يصعد ست ساعات قبل أن يصل إلى هناك . » وهو — حتى فى هذا القليل — إنما يردد ما سمع .

كذلك الفتاة البالغة من العمر ثمانى سنوات ونصف السنة ، فقد تركت هذه الرحلة أيضا فى نفسها رغبات لزم أن يرضيها حلم . فقد أخذنا معنا إلى هالستات ابن الجيران ، وكان فتى فى الثانية عشرة من عمره كله فروسية ، تدل الدلائل على أنه قد نزل من الآنسة الصغيرة منزل القبول . ففى الصباح التالى روت لى الفتاة هذا الحلم : « تصور أنى حلمت أن إميل واحد منا ، يناديكما «ماما» و « بابا » وينام معنا فى الحجرة الكبيرة مثل إخوتى

---

(١) [Hüttel — يطلق على بيوت صغيرة من الخشب تقام فى أنحاء متفرقة من الجبل ويأوى إليها الناس ليلوذوا بها من الخطر ، أو ليستريحوا . ويطلق على كل منها اسم الجهة المقام فيها .]

الصبية . ثم جاءت ماما وألقت بملء يديها تحت أسرتنا ألواحا كبيرة من الشوكولاته لفت فى ورق أزرق وأخضر . » فلما سمعها إخوتها الذين لم يرثوا القدرة على تفسير الأحلام — كما نرى — صاحوا مثل المؤلفين الذين نعرف : هذا الحلم هراء . بيد أن الفتاة نفسها دافعت عن جزء واحد من الحلم على الأقل ، ومن المفيد لنظرية الأعصبة أن نعلم أى جزء هو ، قالت : « أن يكون إميل واحدا منا ، هذا هراء ، وأما حكاية الشوكولاته فلا . » وكان هذا الجزء على التحديد هو الجزء الذى خفى على ، ولكن أم الأولاد أتتنى ببيانه : ذلك أن الأطفال قد توقفوا وهم فى طريقهم من المحطة إلى المنزل أمام موزع آلى بغية الحصول على ألواح من الشوكولاته لفت فى ورقٍ معدنى لامع من هذا النوع عينه ، كانوا يعلمون من سابق خبرتهم أن الآلة تخرجها . غير أن أمهم رأت بحق أن اليوم قد حقق لهم من رغباتهم الكفاية ، وبذلك تركت للحلم تحقيق هذه الرغبة الأخيرة . وكان هذا المشهد الصغير قد فاتنى . وأما جزء الحلم الذى تخاذلت ابنتى عن الدفاع عنه ، فقد فهمته على الفور : فلقد سمعت بأذنى ضيفنا المهذب وهو يطلب من الأولاد أن ينتظروا « بابا » و « ماما » ، فجعل الحلم من هذه القرابة الموقوتة تبنيا مستديما . فعاطفة الفتاة لم تكن تعرف بعد شكلا آخر من أشكال الحياة المشتركة غير الذى صوره الحلم مستوحيا علاقتها بإخوتها . وأما كون ألواح الشوكولاته قد رميت تحت الأسرة ، فهذا بالطبع ما لا يتسنى توضيحه إلا باستفسار الطفلة .

وحدثنى صديق بحلم يشبه حلم ابنى تمام الشبه : كان الحلم لفتاة فى الثامنة . فقد خرج أبوها وفى صحبته جماعة من الأطفال فى نزهة إلى دورنباخ وفى نيتهم أن يزوروا كوخ روهرر . ولكن الوقت تأخر بهم ، فقفل الأب بعد أن وعد الأطفال بأن يعوضهم عما فاتهم فى مرة أخرى . وبينما هم عائدون مروا بسارية تشير إلى الطريق المؤدى إلى الضيعة ، فسأله الأطفال أن يأخذهم إليها ، ولكن كان عليهم فى هذه المرة أيضا ، ولذات السبب ، أن يعزوا أنفسهم بوعد الزيارة فى يوم آخر . وفى صباح اليوم التالى ذهبت الفتاة ذات الأعوام الثمانية إلى والدها ، تقول له وعليها علائم الرضا : « بابا ، لقد رأيت الليلة الماضية فى الحلم أنك كنت معنا فى كوخ روهرر وفى الضيعة . » وهكذا سبق صبرها النافد إلى تحقيق ما وعد به أبوها .

وها هو ذا حلم آخر لا يقل صراحة أوحاه جمال الطبيعة فى آوسى إلى ابنة أخرى

كانت تبلغ من العمر إذ ذاك ثلاث سنوات وثلاثة شهور . فهى كانت عبرت البحيرة للمرة الأولى، وبدت لها الرحلة أقصر مما كان ينبغى ، فأبت أن تغادر القارب حين رسا وبكت مر البكاء ، فلما جاء الصباح قالت لنا : « لقد ركبت البحيرة فى الليلة الماضية . » نرجو أن تكون رحلة الحلم هذه قد دامت وقتا أبعث على رضائها .

وأما ابنى الأكبر — وكان عمره ثمانى سنوات — فكان قد سبق إلى الحلم بتحقق خيالاته ؛ فهو قد رأى نفسه يركب إحدى عربات القتال مع أخيليوس، وكان ديوميد سائق العربة . ولا غرو إذا كانت أساطير اليونان التى قرأها فى اليوم السابق فى كتاب مهدى إلى أخته الكبرى قد ألهبت حماسته .

وإذا جاز أن ندرج الألفاظ التى يتفوه بها الأطفال وهم نيام فى عداد الأحلام ، أمكننى أن أسرد فى هذا الموضع حلما لحالم بين أحدث من فى مجموعتى . فقد أصيبت ابنتى الصغرى — وكان عمرها تسعة عشر شهرا — بنوبة من القيء ذات صباح ، فمنعت عن الأكل طيلة النهار . فلما كان الليل الذى أعقب ذلك النهار الجائع سمعناها تنادى وهى مهتاجة فى نومها : « آنا ڤ (ر) ويد ، ڤ (ر) يز ، ڤ (ر) يز ؛ (ر) ى ، أومليت ، ك (ر) يمه ! . » وهى إذن تستخدم اسمها نفسها للدلالة على فعل الملك — كعادتها إذ ذاك — كما أنها قد ضمنت قائمة الطعام بالطبع كل ما لاح لها أنه يؤلف وجبة شهية . وأما ذكرها صنفين من الفريز فكان إظهارا لاحتجاجها على القواعد الصحية المرعية فى المنزل ، وهو احتجاج بعثت عليه ملابسة لم تغب على التأكيد عن ملاحظتها : ذلك أن المربية كانت قد عزت توعكها إلى تخمة أصابتها من جراء الإفراط فى أكل الفريز . وهكذا كانت الطفلة تثأر من هذا الحكم الذى لم يصادف هوى من نفسها[1] .

فإذا كنا نشهد بسعادة الطفولة لبراءتها من الرغائب الجنسية فلا ننسى أى مصدر خصيب للخيبة وللنزول المكره — ومن ثم أى منبه إلى الحلم — تتضمنه ثانية العزيزتين

---

(١) واتفق بعد ذلك بقليل أن حقق الحالم الجدة ما قد حققه الطفلة الصغيرة — ويبلغ عمراهما معاً شيئا يقرب من السبعين سنة . فقد أجبرت الجدة على التزام الحمية يوما لاضطراب راجع إلى كلية سابحة ، فكان أن حلمت فى الليلة التالية — وقد حملها حلمها من غير شك إلى أيام شبابها البهيجة — بأنها قد دعيت إلى تناول كلتا الوجبتين الرئيستين فى الخارج ، وفى كل وجبة كانت تقدم إليها أشهى الأطعمة .

الحويتين الكبريين [١] . وها هو ذا مثال آخر على ذلك : وكلت إلى ابن أخى — وكان له من العمر اثنان وعشرون شهرا — مهمة القيام بتهنئتى بعيد ميلادى مع تقديم سلة من الكريز الذى لا تُرى فى هذا الوقت من العام سوى بواكيره هديةً إلىّ . ويبدو أن المهمة كانت شاقة عليه ؛ لأنه جعل يردد جملة : « فيها ك (ر) يز » دون أن يتيسر إقناعه بترك السلة تخرج من يديه . إلا أنه عرف على أية حال كيف يعوض ما فاته . فقد كان من عادته حتى ذلك الوقت أن يعلن إلى أمه فى كل صباح أنه قد حلم « بالضابط الأبيض » أى بضابط من ضباط الحرس الإمبراطورى كان قد أعجب به يوما فى الطريق إذ شهده بعباءته البيضاء — ولكنه فى صبيحة اليوم الذى أعقب تلك التضحية من جانبه ، نهض فرحا ليعلن نبأ لا يمكن أن يكون له مأتى غير الحلم : « ه (ر) مان أكل الك (ر) يز كله ! »[٢] .

---

(١) [١٩١١ :] هذا ويعلمنا النظر الأدق إلى الحياة النفسية للأطفال أن القوى الغريزية الجنسية تشارك — وإن يكن على صورة طفلية — بنصيب كبير ، ظللنا نغفل أمره زمناً طويلا ، فى النشاط النفسى للأطفال . كما نخرج أيضاً من مثل هذا النظر بأسباب تدعونا إلى التشكك بعض الشىء فى سعادة الطفولة كما يتصورها الراشدون لأنفسهم من بعد . أنظر كتابى : " ثلاث مقالات فى نظرية الحياة الجنسية " (١٩٠٥ د) .

(٢) [١٩١١ :] يجب أن نذكر أن الأطفال سريعاً ما يأخذون فى الحلم بأحلام أكثر تعقيداً وأقل شفافية ، بينما قد يحلم الراشدون فى بعض الملابسات بأحلام ذات طابع خال من التعقيد ، طفلى . ويجد القارئ أمثلة على ما قد تزخر به أحلام الأطفال المتراوحة أعمارهم بين الرابعة والخامسة من المادة غير المتوقعة فى مؤلفى : " تحليل مخافة شاذة عند غلام فى الخامسة " (١٩٠٩ ب) ، ويونج (١٩٠٩ أ) . وارجع أيضاً فيما يتصل بالتفسيرات التحليلية لأحلام الأطفال إلى هوج — هلموت وبوتنام ورالته وشبيلراين وتاوسك . وتجد أحلاماً أخرى عند بيانكيرى وبوزمان ودوليا ، وبخاصة عند ڤيجام الذى ألح على نزوع هذه الأحلام إلى تحقيق الرغبة . ويبدو من جهة أخرى إن الأحلام ذات الطابع الطفلى يكثر ورودها عند الراشدين إذا وجدوا أنفسهم فى ملابسات خارجية لم يألفوها مثال ذلك مايتحدث به أوتو نوردنسكولد فى كتابه « القطب الجنوبى » (الجزء الأول ، ص ٣٣٦) عن أعضاء بعثته الذين قضوا معه فصل الشتاء هناك ، يقول : « وكانت أحلامنا أشد ما تكون دلالة على اتجاهات أفكارنا الدفينة ، فهى لم تكن فى يوم من الأيام أشد وضوحاً أو أكثر عدداً . بل حتى أولئك الرفاق الذين لم يكونوا يحلمون إلا نادراً ، قد صاروا يصيحون وفى جعبتهم القصص الطوال يقصونها حين نتبادل آخر خبراتنا فى عالم الخيال . وكانت هذه الأحلام جميعها تتعلق بالعالم الخارجى الذى صار الآن بعيداً عنا أيما بعد ، وإن جاءت أيضاً فى كثير من الأحيان متكيفة بعض التكيف مع ملابسات حياتنا الحاضرة . ومن أكثر هذه الأحلام دلالة على ذلك ، حلم خيل فيه إلى أحد الرفاق أنه قد عاد إلى مقعد الدراسة ، وكان عليه فى الحلم أن يسلخ كلاب بحر مصفرة صنعت خصيصاً لأغراض تعليمية . وكان الطعام والشراب هما المحور الذى تدور حوله معظم أحلامنا : فكان أحدنا — وكان ذا موهبة ممتازة فى الاختلاف ليلا إلى موائد العشاء الفاخرة — يفيض حبوراً إذا هو استطاع أن ينبئنا فى الصباح بأنه « قد ظفر بعشاء من ثلاثة أصناف » . هذا بينما كان يحلم آخر بالطباق ، بجبال منه ، وثالث بسفينة تتجه نحونا وقد انبسط من حولها العباب تمخره مخراً . ثم حلم آخر جدير بالذكر : يقبل ساعى البريد ويغرق فى شرح السبب الذى من أجله أقبل متأخراً ؛ فقد حمل البريد إلى عنوان غير العنوان الصحيح ، ولم يستطع استرجاعه

أما بم يحلم الحيوان ، فهذا ما لا أعلم عنه شيئا . ولكن هناك مثلا سائرا — أدين بمعرفته لأحد تلاميذى — يدعى معرفة الجواب : يسأل المثل : بم تحلم الأوزة ؟ ثم يجيب : بالذرة[١] . إن النظرية القائلة : « إن الأحلام تحقيق رغبة » محتواة جميعها فى هاتين الجملتين[٢] .

وهكذا نرى أنه كان فى مقدورنا أن نصل إلى المعنى الخبىء للحلم من طريق أقصر لو أننا استرشدنا العرف اللغوى . صحيح إن اللغة الدارجة تتحدث عن الأحلام أحياناً حديث الزراية . وحين تقول هذه اللغة : « الأحلام أضغاث » فكأنها تبغى بقولها هذا أن تؤيد الحكم العلمى . ومع ذلك فالأحلام فى اللغة الدارجة هى قبل كل شىء المحققات المباركات للرغبات. فنحن نصيح إذ يستخفنا الطرب لأن الواقع قد جاوز ما كنا نتوقعه : ذلك ما لم أكن أتخيله ولو فى أشد أحلامى جرأة .

إلا بالجهد الجهيد . وكنا نحلم على التأكيد بأحلام أخرى أشد بعد استحالة من هذا . ولكن فقر المخيلة فى هذه الأحلام جميعاً — ما أتانى نفسى وما سمعته عن غيرى — كان عجيباً أكبر العجب . ولو قد سجلت كل هذه الأحلام ، لكان من المؤكد أن تكون لها قيمة سيكولوجية كبرى . ومن السهل أن نفهم بعد ذلك كيف كنا نتوق إلى النوم ؛ فلم يكن غير النوم ليجيب كلامنا إلى ما كانت نفسه تتحرق شوقاً إليه . " ويقول دوبرل كذلك (١٨٨٥ ، ٢٣١) : " إن مونجو پارك حين أشرف على الموت ظمأ فى إحدى رحلاته الإفريقية كان لا ينقطع عن الحلم بمراعى وطنه ووديانه التى تجرى فيها المياه . وكذلك ترنك حين عذبه الجوع وهو سجين فى قلعة ماجد بورج ؛ فلما كان يرى نفسه محاطاً بأفخر صنوف الطعام . أما جورج پاك — وكان عضواً فى بعثة فرانكلين الأولى — فكان حين أشرف على الموت جوعاً لا يكف عن حلم واحد لم يتغير : الطعام الكثير . "

(١) وهناك مثل هنجارى استشهد به فرنسى ، يزيد على ذلك فيقول : " يحلم الخنزير بشعر البلوط وتحلم الأوزة بالذرة " . ويقول مثل يهودى : " بم تحلم الفرخة ؟ بالقمح " (برنشتاين ، ١٩٠٨ ، ١١٦) .

(٢) لست أفكر فى القول : إن إرجاع الحلم إلى الرغبة لم يخطر قط لمؤلف من قبل (أنظر مطلع الفصل القادم) فنى مكنة من يعلق أهمية ما على مثل هذه الحدوس المبكرة أن يرجع إلى الأزمنة القديمة وأن يستشهد بهيروفيلوس — وهو طبيب عاش فى أيام بطليموس الأول . فهذا الرجل — على ما يروى بوكسنشوتس (١٨٦٨ ، ٣٣) — قد فرق بين ثلاثة أنواع من الأحلام : أحلام ترسلها الآلهة ، أحلام طبيعية تنشأ حين تتصور النفس ما فيه نفعها وما سوف يقع ، أحلام مختلطة تنشأ نشوءا تلقائيا باجتماع الصور بعضها إلى بعض وذلك حين نرى ما نرغب فيه . ولقد نبه شتاركه إلى حلم فى مجموعة شرنر يصفه المؤلف نفسه بأنه تحقيق رغبة ، يقول شرنر (١٨٦١ ، ٢٣٩) : " إن الحلم قد حقق الرغبة التى أضمرتها الحالمة فى اليقظة ، لا لشىء سوى أن هذه الرغبة كانت تحرك نفسها تحريكا شديدا . " ويدرج شرنر هذا الحلم فى قائمة " الأحلام المزاجية " إلى جانب " أحلام الشبق عند الذكور والإناث " و " أحلام المزاج المعتل " . ومن هذا نرى أن شرنر لا يفكر أقل تفكير فى أن ينسب إلى الرغبات أهمية أخرى فى إثارة الحلم غير التى لغيرها من سائر حالات اليقظة ، وأقل من ذلك أن يفكر فى الربط بين الرغبة وجوهر الحلم .